

«تظل السيرة الذاتية، على ما فيها من خصائص، شكلا روائيا» (ص 28). وفي تعليقه للأسباب التي هيأت المناخ الثقافي لظهور السيرة الذاتية، يتمثل، بصورة معكوسة، نفس الأسباب التي افترضها عبد المحسن بدر لتطور الرواية⁽¹⁾. فهو يرى مثلا «أن جيل طه حسين هو الذي خطا الخطوات الأولى في طريق السيرة الذاتية» (ص 28)، بحكم تكلفه «بطرح عسير الأسئلة في مرحلة التحول التي عاشتها مصر والبلاد العربية... منذ دخول نابليون إلى مصر» مقارنة بالغرب واقتباسا منه، إحساسا بالذات، واستلهاما للملامح التفكير الليبرالي المؤمن بحرية الفرد. مستخلصا أن (هذا التحول... هو المفسر عندنا لنشأة السيرة الذاتية، باعتبارها بحث المبدع الفرد عن معنى حياته) (ص 31). وهي نفس الخلاصة التي يعرضها لتفسير ظهور النصوص الأولى للسيرة الذاتية في الأدب العربي القديم أيضا، مع مراعاة الاختلاف الذي يمس المرحلة من الناحية التاريخية. (ص 26 وما بعدها).

ولا أحسب أن عبد العزيز شرف (2) أتى بشيء جديد لما سبق أن توسع في بحثه شوقي ضيف، وعرضه موجزا محمد عبد الغني حسن، بل وأراه يعيد صياغة ما أقاما عليه حججهما في التأريخ لظهور (الترجمة الذاتية) في الأدب العربي القديم، وأحيانا ينقل عنهما، نصا، كثيرا من الأحكام التي تحتاج إلى تمحيص، إلى ما قد نجد عنده، تخصيصا، من هيام بالمقارنة بين العرب والغرب، لتمجيد (السبق) أو تبرير الاهتمام. ولنا على ذلك قوله: «فحين بدأ فن التراجم يظهر في إنجلترا وفرنسا بصورة ساذجة، كانت التراجم العربية الإسلامية قد بلغت حدا من الكثرة والتنوع وسعة المجال والافتنان في موضوعات التراجم، لا تقاس به البداية غير المنتظمة الخطى في الآداب الأوربية» (ص 47).

ويرى عبد العزيز شرف، في اتجاه آخر، أن الشعر العربي، في بداية الأمر، قام مقام «السيرة الذاتية»، ولبي بعض وظائفها (ص 48)، شارحا ذلك بقوله: «وإنما نقصد أنه قد أدى الوظيفة التي تسعى إلى أدائها السيرة الذاتية» (ص 51)، لأن الشاعر «شخصية إنسانية تعبر لنا عن الدنيا كما يحسها هو لا كما يحسها غيره»، فيكون الباعث مشتركا «في السيرة الذاتية وفي الشعر، حينما يلتقيان في التعبير عن إنسان له ذوق وخالجة، وفهم وتجربة، وخلق وعادة، لا يشبه فيها الآخرين ولا يشبهه فيها الآخرون» (ص 51).

يتضح مما سبق، أن مختلف الآراء التي بسطنا محتواها في تناول السيرة الذاتية في الأدب العربي، قاربت الموضوع من ثلاث زوايا: إشكالية السيرة الذاتية، أو الترجمة

1 - مصدر مذكور، ص 297
2 - أدب السيرة الذاتية، الشركة العالمية / لورنجمان 1992، القاهرة.